

دير القديسة دميانه للراهبات ببراري بلقاس

"طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ

أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ"

تأملات لمثلث الرحمات نيافة الأنبا بيشوي

تقديم

نيافة الأنبا ماركوس

أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري

ورئيس دير القديسة دميانه بالبراري

إعداد راهبات دير القديسة دميانه

تقديم

"يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُداً وَعُتَقَاءً" (مت ١٣ : ٥٢).. "وَإِنْ مَاتَ، يَتَكَلَّمُ بَعْدُ" (عب ١١ : ٤).

بعلم متنوع ومنتسح مع تفاسير كثيرة ودقيقة تعلّمنا من أبينا مثلث الرحمات نيافة الحبر الجليل سيدنا الأنبا بيشوي ومازلنا نتعلم من كنوز علمه ومعرفته الغزيرة في مجموعة من الكتب تصدر عن موضوعات مختلفة من عظات وتعاليم لسيدنا المطران الأنبا بيشوي يقوم بتجميعها وإعدادها للطباعة والنشر الأمهات راهبات دير القديسة العفيفة دميانه؛ وذلك لنستشق منها عطر رائحة كاتبها، ومن علمه الغزير، وما علّم به طوال نصف قرن هي سنوات خدمة نيافته وذلك وفاءً و عرفاناً بتعب نيافته في تعمير الدير وإعادة الحياة الرهبانية به والاهتمام بالحياة الروحية داخل الدير بأبوة حانية ورعاية كاملة حتى أصبح الدير من أكبر وأقدم الأديرة الأثرية للراهبات في كنيستنا القبطية الأرثوذكسية.

نطلب من ربنا يسوع المسيح أن يكون لإصدار هذه الكتب الفائدة المرجوة لكل من يقرأ وينهل منها.

بصلوات وشفاعات القديسة العذراء مريم والقديسة العفيفة دميانه
والأربعين عذراء وبصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا تواضروس
الثاني أطال الله حياته وحفظه للكنيسة ولشعبه.

الأنبا ماركوس

أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري
ورئيس دير القديسة دميانه بالبراري

"طُوبَى لِلَّتِي آمَنْتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ"

شهادة الروح القدس عن العذراء

شهد الروح القدس نفسه للسيدة عذراء، إذ يقول الكتاب "وَأَمْتَلَأْتُ
أَلْيَصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالْتُ:
مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةٌ بَطْنِكَ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا
أَنْ تَأْتِي أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟ فَهُوَذَا حِينَ صَارَ صَوْتُ سَلَامِكَ فِي أُذُنِي
ارْتَكُضَ الْجَنِينُ بِابْتِهَاجٍ فِي بَطْنِي. فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنْتْ أَنْ يَتِمَّ مَا
قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" (لو ١: ٤١-٤٥). هذا الكلام الذي قالته
أليصابات عن العذراء لم تقله من نفسها لكن قالته إذ "أَمْتَلَأْتُ
أَلْيَصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ". بمعنى إن
الروح القدس نطق على لسانها.

تطويب العذراء مريم

كلنا نحب السيدة العذراء مريم باعتبارها والدة الإله، أم السيد المسيح
مخلصنا الصالح. كلنا نحبا لأنها مثال للبتولية والطهارة والقداسة.

لكننا نريد أن نحبا أكثر وأكثر ونكتشف أبعاد الفضائل الروحية التي عاشت بها والتي كانت هي السبب في اختيار الله لها لتكون أمًا للسيد المسيح. فهي ليست -كما يقول البعض- إناء غسل أفرغناه من العسل ولم تعد له قيمة، ولكنها حقًا تستحق التطويب، وقيل لها بالروح القدس "طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ". ونحن يجب علينا أن نردد هذه العبارة "طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" ..

وكذلك أيضًا حينما تكلمت العذراء قالت "هُوَذَا مُنْذُ الْآنَ جَمِيعُ الْأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي" (لو ١ : ٤٨).

إيمان العذراء مريم

لقد آمنت العذراء مريم أن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس. آمنت أنه من الممكن أن تحبل بدون زواج أو بدون زرع بشر. وهذا الأمر يفوق العقل.

قال معلمنا بولس الرسول "أما الإِيمَانُ فَهُوَ التِّقَّةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى" (عب ١١ : ١). فالإنسان المؤمن يؤمن أن الله يستطيع أن يفعل فوق ما يطلب وفوق ما يفكر، وأنه قادر على كل شئ. وقد قال السيد المسيح "الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيْمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذَا الْجَبَلِ: انْتَقِلْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ فَيَنْتَقِلُ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ غَيْرَ مُمَكِّنٍ لَدَيْكُمْ" (مت ١٧ : ٢٠).

كان إيمان السيدة العذراء إيمانًا مثاليًا، فقد صدّقت شئ يصعب تصديقه. فبالرغم من أن إشعياء النبي قال "هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبِلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّا نُؤْيِلَ" (إش ٧ : ١٤) لكن من يستطيع أن يصدق ذلك؟ أو من هي التي تصدق أن هذا يحدث لها هي شخصيًا. لقد ذكر الكتاب أن البعض حبلن في شيخوختهن مثل سارة وأليصابات وغيرهن، كما ذكر أن بعض العواقر أيضًا حبلن مثل مثل راحيل وحنة أم صموئيل. لكن ما حدث مع السيدة العذراء لم يحدث من قبل وهو شئ يفوق الطبيعة وليس له تفسير، لذلك يعد إيمانها فريد من نوعه. لقد آمنت بما قاله الملاك ولم ترفض كلام

الله بل قبلته وقالت "هُوَذَا أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ" (لو ١ : ٣٩). مهما كان الأمر غريباً أو يصعب تصديقه مادام الله هو الذي قاله "أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ"، لأن الإيمان كما قال معلمنا بولس الرسول هو "الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى" (عب ١١ : ١). ويقول كذلك "وَلَكِنْ بِدُونِ إِيْمَانٍ لَا يُمَكِّنُ إِرْضَاؤُهُ، لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ" (عب ١١ : ٦). ويقول أيضاً "أَمَّا النَّبَارُ فَبِالْإِيْمَانِ يَحْيَا، وَإِنْ ارْتَدَّ لَا تُسَرُّ بِهِ نَفْسِي" (عب ١٠ : ٣٨) أي إن الذي يعيش بالإيمان فهو بار ومن يرفض الإيمان فإنه يحزن الله.

لقد قيل عن أبينا إبراهيم "فَأَمَّنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللَّهِ فَحُسِبَ لَهُ بَرًّا" (رو ٤ : ٣) وأيضاً "فَهُوَ عَلَى خِلَافِ الرَّجَاءِ، آمَنَ عَلَى الرَّجَاءِ" (رو ٤ : ١٨). الله يفرح إذا صدقنا شيئاً ضد العقل وعلى خلاف ما نفكر فيه. ويظهر الإيمان حينما نصدق ما لا نستطيع أحد تصديقه، حينما نعيش موقف لا نستطيع أحد أن يعيشه..

هذا كان إيمان السيدة العذراء..

ما الذي آمنت به السيدة العذراء؟

١- آمنت بما يفوق الخيال وقبل أن يحدث

آمنت السيدة العذراء بما هو فوق الخيال.. بما لا يمكن لإنسان أن يتخيله أو يتصوره..

الذي يستطيع الإنسان أن يتخيله قد يؤمن به. أما السيدة العذراء فقد آمنت بما لا يستطيع أحد تخيله. آمنت أن جنينًا سوف يتكون في بطنها بدون زواج، والخيال لا يصل مطلقًا لهذه النتيجة. بل آمنت بذلك قبل أن يتم وليس بعد حدوثه. ولو لم تؤمن السيدة العذراء بحدوثه قبل أن يتم، لما حدث. لذلك نحن نقول للسيدة العذراء : {بك صار الخلاص لجنسنا} لأنها "آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" ولولا هذا الإيمان لما صار الخلاص.

لم تقدّم السيدة العذراء نفسها ذبيحة على الصليب ولم تقد العالم، لكن عن طريقها وبواسطة إيمانها وقبولها وطاعتها تحقق كل هذا الخير للبشرية. لذلك هي تستحق منا كل الحب؛ لأنه من خلالها

وعن طريقها أمكن أن يحل كلمة الله ويتجسد في أحشائها ولولا إيمانها لما تم ذلك. لذلك نحن كلنا مدينين للسيدة العذراء مريم بهذا الإيمان العظيم الذي آمنت به.

٢- آمنت بعظام

لم تؤمن العذراء فقط أن جنيناً سوف يتكون في بطنها بدون زرع بشر، لكنها آمنت بما يفوق ذلك وبما هو أعظم من ذلك بكثير. فما هو؟؟؟...

آمنت السيدة العذراء أن الجنين الذي تكون في بطنها هو كلمة الله المتجسد. لأن الملاك قال لها "هَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيْنَهُ يَسُوعَ. هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى" (لو ١ : ٣١) ثم أكد قائلاً "الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنَ اللَّهِ" (لو ١ : ٣٥). فقد آمنت أن كلمة الله يأخذ جسداً منها ويولد ويظهر في الجسد.

قال معلمنا بولس الرسول "وَبِالْإِجْمَاعِ عَظِيمٍ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى اللَّهِ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ" (١٦ : ٣). فمعلمنا بولس الرسول يعتبر أن

سر التجسد هو أعظم الأسرار، بل أعظم سر في الوجود. وقد قال ذلك بعدما حدث الأمر بأكثر من خمسين عامًا، أما العذراء مريم فقد آمنت به قبل أن يتم.

آمنت السيدة العذراء بتجسد الكلمة قبل أن يؤمن أي إنسان في الوجود بهذه الواقعة التي تعانقت فيها السماء والأرض وظهر الله في الجسد. عاشت السيدة العذراء هذه الحقيقة لأنها كانت الإناء الطاهر الذي حمل كلمة الله. ويقول الكتاب "وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لَوْحِيدٍ مِنَ الْآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا" (يو ١: ١٤).

اتحد اللاهوت بالانسوت في بطن العذراء مثلما كانت النار التي رآها موسى النبي تشتعل في العليقة ولم تحترق. كانت السيدة العذراء تعلم أن المولود منها هو ابن الله القدوس الإله الذي تستر الملائكة وجوهها من بهاء عظمة مجده، الإله المالى الوجود كله. كما آمنت أن غير المحوى سوف يصير طفلاً وتحمله

في أحشائها ثم تحمله على ذراعيها.. شئ فوق استيعاب
العقل!!!

لقد اتحد اللاهوت بالناسوت اتحادًا طبيعيًا واتحادًا حقيقيًا في بطن
السيدة العذراء، وتجسد الكلمة دون أن يُحد اللاهوت لأن اللاهوت
غير محدود. إن أحدًا لم يشرح للسيدة العذراء هذه الأمور التي
تستغرق منا سنوات طويلة لفهمها ثم شرحها للآخرين. لكن السيدة
العذراء منذ اللحظة التي قال لها فيها الملاك "الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ
يُدْعَى ابْنَ اللَّهِ" أجابت مباشرة وقالت "لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ" (لو ١:
٣٨). آمنت بتجسد الكلمة الذي يُحير العلماء ولم تناقش. عقليات
جبارة وحكماء لا يستطيعون تصديق ما صدقته السيدة العذراء
بسهولة وبسرعة لأن الأمر يحتاج إلى إيمان وهي كان لها هذا
الإيمان.

ناقشت العذراء في نقطة واحدة فقط، وهي كيف ستحبل وهي تعيش
في البتولية، فقال لها بتوليتك محفوظة لأن "الرُّوحُ الْقُدُّوسُ يَحِلُّ

عَلَيْكَ" (لو ١ : ٣٥) والذي سيولد منك هو من الروح القدس. لم تناقش كيف سيحدث ذلك فهي توافق على كل ما يأمر به الله. توافق أن من تحبل به يكون هو كلمة الله الأزلي المولود من الآب قبل كل الدهور، الذي ولد من الآب منذ الأزل بدون أم ويولد منها في ملء الزمان بدون أب.

٣- آمنت دون أن ترى

حينما تكلم السيد المسيح مع تلاميذه وسألهم قائلاً "مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الْإِنْسَانِ؟ فَقَالُوا قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِبِلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. قَالَ لَهُمْ: وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ بَطْرُسُ وَقَالَ: أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بَنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ" (مت ١٦: ١٣-١٧)...

فالإيمان بأن المسيح هو ابن الله الحي لم يكن أمرًا سهلاً، حتى بالنسبة للرسل الذين رأوا المسيح وعايَنوا معجزاته، لكنه يحتاج إعلانًا من الآب الذي في السموات.

في عرس قانا الجليل بعدما تحوّل الماء إلى خمر -بشفاعة السيدة العذراء لدى ابنها- يقول الكتاب "هذه بداية الآياتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَأَمَنَ بِهِ تَلَامِيذُهُ" (يو ٢: ١١). أي أن التلاميذ آمنوا لما عايَنوا المعجزة.

وحيثما أتاهم السيد المسيح ماشيًا على الماء يقول الكتاب "وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ" (مت ١٤: ٣٣). حينما رأوا آمنوا..

أما العذراء فبمجرد أن قال لها الملاك "الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنُ اللَّهِ"، لم تحتاج لأي دليل أو إثبات لكنها آمنت دون أن ترى.

٤- آمنت أن المولود من الآب أزلياً يولد منها جسدياً

ولادة الابن من الآب هي مثل ولادة الفكر من العقل. فطبيعة العقل أنه يلد فكراً، هكذا الابن مولود من الآب بالطبيعة بدون أم، ولادة أزلية خارج الزمن سابقة لخلقة البشر والملائكة وكل الوجود. والمولود من الآب قبل كل الدهور نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس. فالذي ولد من الآب بدون أم هو نفسه الذي ولد من العذراء بدون أب، لكنه ولد من الآب بحسب ألوهيته وولد من العذراء بحسب إنسانيته. أي أخذ جسداً منها لكن هذا الجسد اتحد باللاهوت منذ اللحظة الأولى للتجسد.

٥- آمنت بسر التجسد الإلهي

قالت أليصابات للسيدة العذراء "فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِي أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟" العذراء هي أم ربها أي والدة الإله لأن المولود منها هو المولود من الآب قبل كل الدهور.

نسطور بطريك القسطنطينية، لم يوافق على تسمية السيدة العذراء "والدة الإله" ودعاها "أم المسيح" لأنه لم يؤمن بإتحاد اللاهوت بالناسوت. فحُرِمَ في المجمع المسكوني الثالث في أفسس سنة ٤٣١م برئاسة البابا كيرلس الكبير، وعُزِلَ عن كرسيه ونفي إلى أخميم في صعيد مصر. كان نسطور بطريكًا للقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، ومع ذلك هذا البطريرك العظيم والعالم الجبار لم يستطع أن يفهم معنى اتحاد اللاهوت بالناسوت الذي صدقته مريم الفتاة الصغيرة وآمنت به.

إن إيمان السيدة العذراء يفوق تفكير كبار اللاهوتيين والعلماء العظام. لذلك فإن أليصابات بالروح القدس مدحت إيمان العذراء قائلة "طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ". مدحت أليصابات هذا الإيمان الذي استطاع أن يحمل هذه الحقيقة أن "الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنَ اللَّهِ"، ويحيها ويختبرها ويقبلها ويصير أداة يستخدمها الله لأجل إتمام هذا الأمر العظيم.

لقد آمنت السيدة العذراء بتجسد الكلمة وفهمت التجسد الإلهي وارتفع عقلها جدًا بالإيمان، لذلك نحن نسميها السماء الثانية. لقد سمت بفكرها وبإيمانها وبروحها وارتفعت جدًا حتى فهمت سر التجسد الإلهي. فكما إنه تجسد وسكن في بطنها هكذا كان سره المكنون مفهومًا في روحها وإيمانها وفكرها، فاستطاعت أن ترى بعيني إيمانها أكثر مما يراه الشاروبيم والسيرافيم حاملي العرش الإلهي.. استطاعت بفكرها أن تفهم التجسد الإلهي وأن تستوعب حلول الله في الجسد وأن تؤمن به وتمجده.

سمت السيدة العذراء في روحها وقلبها وعقلها واستطاعت أن تستوعب فكرة التجسد الإلهي روحياً قبل أن تصير حقيقة. أي أنها حملت الكلمة متجسداً في وجدانها قبل أن تحمله متجسداً في أحشائها. حملت السيد المسيح في بطنها لأنها استطاعت أن تحمله في قلبها، لذلك فحينما ولدته وصار محمولاً على ذراعيها ظل أيضاً محمولاً في قلبها. وحينما كان معلقاً على الصليب كان لا يزال محمولاً في قلبها. وهذا هو السبب في أننا ندعوها السماء

الثانية لأن سره كان في فكرها وروحها وقلبها حتى بعدما خرج من أحشائها، حتى بعد أن ولدته، وأيضًا بعد أن صلب. لذلك نقول إن "صهيون الأم تقول إن إنسانًا وإنسانًا حل فيها وهو العلي الذي أسسها إلى الأبد" (مز ٨٧: ٥) ونقول "أعمال مجيدة قد قبلت عنك يا مدينة الله" (مز ٨٧: ٣).

استمرت السيدة العذراء سماءً ثانية لأن هذا الإيمان العظيم ظل ساكنًا في روحها وقلبها إلى أن انطلقت من هذا العالم، لكي يستقبل السيد المسيح روحها وينقلها إلى الفردوس.

٦- آمنت بأقوال الله

آمنت السيدة العذراء بأن كل ما قاله الملاك لها سوف يتحقق. قال لها الملاك "هَآ أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيْنَهُ يَسُوعَ. هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الْإِلَهَ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَآيَةٌ" (لو ١:

٣١-٣٣). فسوف يأخذ كرسي داود وسوف يملك إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية.

لكن ها هو هيرودس يريد قتله، فهربت به إلى مصر وتشردت وعاشت حياة فقيرة، ثم كبر وبدأ يعمل في النجارة، ولم يكن له أين يسند رأسه، ثم أخيراً سُجن وجُلد وسُمِرَ على الصليب ورأته وهو ينازع سكرات الموت وعلى رأسه إكليل الشوك. أين الملك الذي قال لها عنه الملاك؟! أين العظمة والسلطة والعرش والتاج والصولجان؟! كيف يملك وأين يملك؟ ما هي مظاهر ملكه؟ هنا كان اختبار إيمانها بالنار لأن الإيمان الحقيقي لا بد أن يُختبر ويُمتحن بالنار.

٧- آمنت بالقيامة أثناء الصلب وتسليم الروح

لقد آمنت السيدة العذراء كما ذكرنا بما لا يستطيع أحد أن يصدقه، وبما يفوق الخيال. فكان إيمانها حينئذ هو إيمان القبول، لكن هذا لا

يكفي. فقد أراد الله أن يظهر أن هذا الإيمان امْتُحِن واختُبر بالنار
مثل الذهب المصفى.

يوجد نوعان من الإيمان:

الأول: هو إيمان القبول الذي يصدق إعلانات الله ومواعيده لكن لا
يستطيع أن يعبر التجربة.

الثاني: هو إيمان الامتحان.

هناك فرق كبير بين إيمان يستطيع أن يصدّق أشياء عظيمة جدًّا،
وبين إيمان يجوز في اختبار صعب لا يستطيع أحد أن يحتمله.
هذا هو الإيمان الراسخ الذي لن يتزعزع.. "طُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ
يَتِمَّ". كانت السيدة العذراء تؤمن أن السيد المسيح سوف يملك
إلى الأبد حتى وهو في آخر لحظاته على الصليب. وآمنت أنه
سوف يملك إلى الأبد بعد أن أسلم روحه الطاهرة "وَنَادَى يَسُوعُ
بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي" (لو ٢٣:

(٤٦). آمنت أنه كلمة الله الحي الذي لا يموت وهي تراه قد أسلم الروح .

قال السيد المسيح للتلاميذ "كُلُّكُمْ تَشْكُونَنِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ" (مت ٢٦ : ٣١).
حتى بطرس الذي قال "أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ"
(مت ١٦ : ١٦) بعد امتحان الصليب وفي وقت التجربة أنكر وقال له
السيد المسيح "طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لَا يَفْنَى إِيمَانُكَ" (لو ٢٢ : ٣٢)،
لذلك قيل أنه حينما دخل إلى القبر ونظر الأكفان موضوعة "رَأَى
فَأَمَّنَ" (يو ٢٠ : ٨). حتى يوحنا الحبيب الذي رأى السيد المسيح
على جبل التجلي ووقف بجوار الصليب قيل إنه لما نظر الأكفان
في القبر "رَأَى فَأَمَّنَ".

وتلميذي عمواس قالوا عن السيد المسيح "يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ
إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ اللَّهِ وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. كَيْفَ
أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ. وَنَحْنُ كُنَّا

نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمَعُ أَنْ يُفْدِيَ إِسْرَائِيلَ" (لو ٢٤ : ١٩-٢١). مات يسوع الناصري في نظرهم وانتهى الأمر! فقال لهما السيد المسيح "أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَانِ الْقُلُوبِ فِي الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ... " (لو ٢٤ : ٢٥).

أما السيدة العذراء فهي الوحيدة بين البشر التي كانت تؤمن بقيامة المسيح من بين الأموات لذلك سبق الروح القدس وطوبها قائلاً "فَطُوبَى لِّتِي آمَنْتَ أَنْ يَتَّمَ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ" ..

لم تشك السيدة العذراء في قيامة السيد المسيح ولا للحظة واحدة. كانت تقف عند الصليب بكل ما في الصلبوت من ألم ولكنها كانت ترى ابنها متوجاً على الخشبة كما يقول سفر النشيد "أُخْرِجَنَّ يَا بَنَاتِ صِهْيُونَ، وَانظُرْنَ الْمَلِكَ سُلَيْمَانَ بِالتَّاجِ الَّذِي تَوَجَّهَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي يَوْمِ عُرْسِهِ، وَفِي يَوْمِ فَرَحِ قَلْبِهِ" (نش ٣ : ١١). كان إكليل الشوك في نظر العذراء هو تاج الخلاص الذي صنعه ابنها وكانت تصلى وتقول {أما العالم فيفرح بقبوله الخلاص وأما أحشائي فتلتهب عند

نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني
وإلهي { قطع الساعة التاسعة). كان قلبها عامراً بالإيمان...!!

كان إيمانها أعظم من إيمان إبراهيم..

لقد أخذ إبراهيم ابنه لكي يقدمه ذبيحة على الجبل. ويقول معلمنا
بولس الرسول "بِالإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ. قَدَّمَ الَّذِي
قَبْلَ الْمَوَاعِيدِ، وَحِيدَهُ الَّذِي قِيلَ لَهُ: إِنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. إِذْ
حَسِبَ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِقَامَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ أَيْضًا، الَّذِينَ مِنْهُمْ
أَخَذَهُ أَيْضًا فِي مِثَالٍ" (عب ١١ : ١٧-١٩). فقد آمن إبراهيم بقيامة
إسحق بعد ذبحه، وهكذا آمنت العذراء مريم بقيامة السيد المسيح من
بعد موته. لكن بالنسبة للسيدة العذراء كان الموقف أصعب لأن الله
منع إبراهيم عن ذبح ابنه وأرسل له كبشاً ليذبحه عوضاً عن ابنه،
أما بالنسبة للسيدة العذراء فقد تمت الذبيحة بالفعل.

نقطة ثانية هي إن إسحق كان إنسانًا عاديًا يمكن أن يُذبح، أما ذبح كلمة الله المتجسد فقد كان أمرًا كبيرًا جدًا. كيف أن الذي قال "أنا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ" (يو ١١ : ٢٥) يموت؟!!

كيف يتجسد كلمة الله؟ ثم كيف يموت كلمة الله؟!!

إن السيد المسيح قَبْلَ الموت بإرادته حتى يفدينا ويخلصنا، ولكنه مات ليس بحسب ألوهيته إنما بحسب الجسد، أما بحسب اللاهوت فهو لا يموت إطلاقًا. مات المسيح بالجسد بإنسانيته لكن اللاهوت لم يُمس ولم يتغير ولم يموت.

لم يتأثر اللاهوت المتحد بالناسوت بموت الجسد. فقد ابتلع الموت المسيح لكن كان المسيح أقوى من الموت. لذلك فحينما أبتلع الموت الحياة، انتصرت الحياة وابتلعت الموت. لذلك تقول النبوة "ابْتَلَعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلْبَةٍ. أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلْبَتُكَ يَا هَاوِيَّةُ؟" (١كو ١٥ : ٥٤-٥٥؛ أنظر هو ١٣ : ١٤). ابتلع السيد المسيح الموت لأنه هو الحياة، لذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في قداسه {حينما

انحدرت إلى الموت أيها الحياة الذي لا يموت حينئذ أمت الجحيم ببرق لاهوتك، وحينما أقمت الأموات من تحت الثرى صرخ نحوك القوات السماوية أيها المسيح الإله المجد لك}. مات المسيح ليعيد لنا الحياة، {بالموت داس الموت} لأن الحياة التي فيه أقوى من الموت الذي فينا لأن "فِيهِ كَانَتْ الْحَيَاةُ" (يو ١ : ٤) فلم يكن ممكناً أن يُمسك من الموت.

هذا هو إيمان السيدة العذراء :

إن الذي عُلق على الصليب ومات بالجسد هو رب الحياة نفسها وهو معطي الحياة. لهذا فحينما قام من الأموات في اليوم الثالث أقام معه كثيراً من أجساد القديسين الراقدين، "وَحَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ" (مت ٢٧ : ٥٣)، ليعلم أن الحياة قد مُنحت للبشر وأن "الْحَيَاةَ أَظْهَرَتْ" (١ يو ١ : ٢). الإيمان ليس أننا نفرح بالقيامة بعدما حدثت، لكن الإيمان

الحقيقي كان هو الإيمان بالقيامة أثناء أحداث الصليب، وأن نحياء
القيامة في لحظات الموت. هذا ما عاشته العذراء مريم.

٨- أنت بملكه الأبدي

كانت السيدة العذراء هي الوحيدة التي عبرت تجربة الجلجثة
بإيمانها فقد كانت ترى السيد المسيح معلقاً على الصليب بعينيها
الجسدية لكنها بعين الإيمان كانت تراه صاعداً إلى السماء في
وسط جماهير الملائكة لكي يجلس عن يمين الأب. هذا هو
العبور. كانت تراه حاملاً إكليل الشوك على رأسه وبعين الإيمان
كانت تراه مكللاً بالمجد الأبدي فجازت لحظات لا يعبر عنها. قمة
الحزن وقمة التعزية هذا ما عبر عنه معلمنا بولس الرسول حينما
قال "فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ، صَابِرِينَ فِي الضَّيْقِ" (رو ١٢: ١٢).

كانت السيدة العذراء ترى مع كل نقطة دم تنزف على الصليب
آلآفاً من الناس يدخلون الملكوت ومع كل نقطة دم تسيل من
إكليل الشوك كانت ترى المسيح يملك على ملايين من البشر.

لذلك تنبأ سفر النشيد قائلاً "أُخْرِجَنَّ يَا بَنَاتِ صِهْيُونَ، وَأَنْظُرَنَّ الْمَلِكَ
سُلَيْمَانَ بِالتَّاجِ الَّذِي تَوَجَّهَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي يَوْمِ عُرْسِهِ، وَفِي يَوْمِ فَرَحِ
قَلْبِهِ" (نش ٣: ١١). توجهته أمه بعيني إيمانها وهي تراه يملك إلى
الأبد. توجهته وهي تراه عريسًا للكنيسة وهي العروس المختارة.

كان مشهد الصليب صعبًا جدًا من جهة قساوة البشر، وضعف
التلاميذ. لكن كان هناك مشهدًا آخر بهيجًا هو مشهد العروس
الحقيقية (كرمز للكنيسة) وهي تقف بجوار عريسها البهيج.

وكان هناك منظران متناقضان: منظر الأمة اليهودية وهي تسلم
فاديها للموت، ومنظر القبة الثانية التي للأقداس وهي تحتضن
حقيقة الخلاص وتعيشها دقيقة بدقيقة فهي العروس التي تقف
بجوار عرش العريس كما قيل في المزمور "قامت الملكة عن يمين
الملك" (مز ٤٥: ١٠). لذلك ولكي يعلن السيد المسيح هذه الحقيقة
-حقيقة العرس بينه وبين الكنيسة بدمه الغالي وأن هذه هي الحمامة
الحسنة التي تعبر عن العرس غير المنظور- قدّم العذراء أمًا

للكنيسة قائلاً "هُوَذَا أُمَّكَ" (يو ١٩ : ٢٧) وقال للعدراء "هُوَذَا ابْنُكَ" (يو ١٩ : ٢٦). فهو يريد أن يؤكد أن العدراء هي للكنيسة والكنيسة للعدراء لأن هذه هي باكورة القديسين جميعًا وهي الشفاعة المؤتمنة في جنس البشر.

لا شك أن العدراء كأم تألمت وحزنت كثيرًا عند الصليب. فإن السيد المسيح نفسه بكى عند قبر لعازر حتى علق اليهود بقولهم "انظروا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ" (يو ١١ : ٣٦) فإذا كانت هذه هي مشاعر السيد المسيح البشرية الطبيعية فكم بالأولى العدراء مريم نحو ابنها.

لكن وسط هذه المشاعر الطاحنة والأحزان القاتلة كانت لها الرؤية النبوية التي مكنتها من أن تعبر بالإيمان، وتعبّر عبورًا مجيدًا. تَعْبُرُ من واقع الجلجثة إلى مجد الأبدية وهي ترى وحدها جالسًا عن يمين العظمة ومالكًا إلى الأبد.

يقول الكتاب عن إبراهيم أب الآباء "أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنَّ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ" (يو ٨ : ٥٦) وها هي ابنة إبراهيم تقف أمام

صليب الجلجثة وترى بعين النبوة كل الأسرار المكنونة وتتأمل فيما لا يستطيع أحد أن يصل إليه من تأملات. فلا يمكن أن فكراً أو شعوراً أو رؤيةً، لأى من القديسين على مدى الأجيال، يستطيع أن يصل إلى ما اختبرته السيدة العذراء وعاشته وهي تقف بجوار الصليب. لكنها وقفت صامته بطبيعتها ولم تتكلم.

قال معلمنا بطرس الرسول "الْخَلَّاصَ الَّذِي فَتَّشَ وَبَحَثَ عَنْهُ أَنْبِيَاءُ، الَّذِينَ تَنَبَّأُوا عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لِأَجْلِكُمْ، بَاحْتِثِينَ أَيُّ وَقْتٍ أَوْ مَا الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَدُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الْمَسِيحِ الَّذِي فِيهِمْ، إِذْ سَبَقَ فَشَهَدَ بِالْآلَامِ الَّتِي لِلْمَسِيحِ، وَالْأَمْجَادِ الَّتِي بَعْدَهَا. الَّذِينَ أُعْلِنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسَ لِأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لَنَا كَانُوا يَخْدِمُونَ بِهِذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي أُخْبِرْتُمْ بِهَا أَنْتُمْ الْآنَ، بِوَاسِطَةِ الَّذِينَ بَشَّرُوكُمْ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُرْسَلِ مِنَ السَّمَاءِ. الَّتِي تَشْتَهِي الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَطَّلَعَ عَلَيْهَا" (١بط ١: ١٠-١٢). فإن كان الروح القدس قد سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها، فالعذراء فاقت ذلك لأنها عاشت آلام المسيح دقيقة بدقيقة وعاشت الأمجاد التي بعدها أيضاً بروح النبوة .

كانت السيدة العذراء ترى الكنيسة تزف إلى عريستها السماوي وكانت ترى الشهداء -مثل الشهيدة دميانه- وهم يقدمون أنفسهم كذبائح وعرائس للمسيح لذلك قالت السيدة العذراء {أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص وأما أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني وإلهي} وبذلك تحقق قول المزمور "عِنْدَ كَثْرَةِ هُمُومِي فِي دَاخِلِي، تَعْزِيَاتُكَ تُلَذِّدُ نَفْسِي" (مز ٩٤ : ١٩).

هل لديك هذا الإيمان؟

يقول معلمنا بولس الرسول "أما الإِيمَانُ فَهُوَ النَّقَّةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى" (عب ١١ : ١)، هل لديك هذا الإيمان أم لا؟
هل تؤمن أن الله يستطيع أن يفعل فوق ما تطلب أو تفتكر؟
هل تؤمن أن الله قادر على كل شيء؟
هل تؤمن أن الله يستطيع أن ينقل الجبال وأن يهد الأسوار وأن يحطم العقبات وأن يفعل المستحيل.

هل تؤمن بحراسة الله لك؟

إن كنت تخاف فليس لك إيمان. لابد أن يكون لك إيمان في حماية الله الذي قال "وَلَكِنَّ شَعْرَةَ مِنْ رُؤُوسِكُمْ لَا تَهْلِكُ" (لو ٢١ : ١٨)، ويقول المزمور "دَخَلْنَا فِي النَّارِ وَالْمَاءِ، ثُمَّ أَخْرَجْتَنَا إِلَى الْخِصْبِ" (مز ٦٦ : ١٢). لا يهم أن كنا في النار أو الماء لكن المهم هو أن نردد بيقين "إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي" (مز ٢٣ : ٤). لأن السيد المسيح قال "فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ، وَلَكِنْ ثَقُّوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ" (يو ١٦ : ٣٣). وقال معلمنا يوحنا "وَهَذِهِ هِيَ الْغَلْبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ: إِيمَانُنَا" (١ يو ٥ : ٤). والإيمان هو الذي يجعلك تعطي بسخاء لأنك تعلم أن الله سوف يرزقك.. الإيمان يجعلك تستطيع أن تضحي بمحبة العالم لأنك تؤمن بالحياة الأبدية.. الإيمان يجعلك تصدق بوجود حياة أخرى بعد الموت فلا تخاف الموت.

الإيمان هو عبور

كيف يعبر الإنسان من الموت إلى الحياة؟

كيف يعبر من الهزيمة إلى النصر؟

كيف يعبر بإيمانه ليعيش النصر حتى في وقت الهزيمة؟

كيف تعيش الفرح في وقت الحزن؟

كيف تعيش النهار المضيء في وقت ظلمات الليل الحالكة؟

هذا ما يصنعه الإيمان حينما يعبر بالإنسان في وقت التجربة.

إذا أردت أن تثبت أنك مؤمن يجب عليك أن تؤمن بما لا تراه،

تؤمن بالمستحيل الذي لا يستطيع أحد تصديقه، حينئذ تستطيع أن

تغلب العالم وينطبق عليك قول الرب "أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا"

(عب ١٠ : ٣٨). هذا ما عاشته العذراء فكللت واستحقت التطويب.

الإيمان يحتاج إلى رصيد من المحبة

من يهرب من الألم هو في الحقيقة يهرب من الله. ومن يهرب من

الضيق يهرب من الإعلانات السماوية. أما من يقبل الضيقة

بفرح ويعاين الآلام التي في المسيح، فذاك سيرى الأمجاد التي

بعدها. لولا أن إبراهيم قبل أن يقدم ابنه ذبيحة لما رأى يوم الفداء

ويوم الخلاص.

كلما يأخذ الله الإنسان على جبال التأمل وجبال التجربة والآلام يشعر الإنسان بالخوف ولكن بعدما يصعد ويرى يفرح حينئذ بالرؤية. والشرط لذلك هو أننا نبقى مع الله في كل خطوة. كانت العذراء من هذا النوع. فقد أُخْبِرَ إيمانها وامْتُحِنَ كثيرًا لكنه ظل صامدًا إلى النهاية "فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ".

كثيرون يحبون الحياة السهلة، وإذا جاءتهم تجربة يقولون لو كان الله يحبنا لما تركنا في وقت التجربة والضيقة. يريدون أن يروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم لكي يحسوا ويدركوا، "أما الإِيمَانُ فَهُوَ النَّقَّةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى" (عب ١١ : ١). لذلك فإن اختبار الإيمان يحتاج إلى رصيد كبير جدًا من المحبة. والإيمان العامل بالمحبة هو الإيمان الذي ينمو. هذا ما جعل السيد المسيح يعاتب القديس بطرس الرسول قائلاً "أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟" (يو ٢١ : ١٥) أنت قلت "وَلَوْ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لَا أَنْكِرُكَ" (مت ٢٦ :

(٣٥)، لكن المسألة تحتاج إلى رصيد من الإيمان حتى تجوز التجربة.

كان في قلب العذراء مريم من الحب ما استطاع أن يرافق الإيمان ويسنده. وعن ذلك قيل في سفر النشيد "لأنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ.. لَهِيْبُهَا لَهِيْبُ نَارٍ لَطَى الرَّبِّ. مِيَاهٌ كَثِيْرَةٌ لَا تَسْتَطِيْعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ، وَالسُّيُوْلُ لَا تَعْمُرُهَا" (نش ٨: ٦-٧).

حينما نتكلم عن إيمان السيدة العذراء مريم لابد أن نتذكر الإيمان الذي امتحن وصار مثل الذهب المصفى بالنار، الذي جعل معلمنا بولس الرسول يقول "أَمَّا الْآنَ فَيَثْبُتُ: الْإِيْمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ، هَذِهِ الثَّلَاثَةُ وَلَكِنَّ أَعْظَمَهُنَّ الْمَحَبَّةُ" (١كو ١٣: ١٣). كان الإيمان في قلب السيدة العذراء مريم قويًا وكان الرجاء قويًا وكانت المحبة أقوى منهما لذلك انتصرت هذه المحبة وتزكى هذا الإيمان.

* عن عظة ألقىت في كنيسة السيدة العذراء بسخا وعظة ألقىت للراهبات في دير القديسة دميانه في صوم السيدة العذراء عام ١٩٩٥م.

